(فن الرسالة في العصر الأندلس الإسلامي وشبه القارة الهندية (دراسة مقارنة

The art of the Letter in the era of Islamic Andalusia and the Indian subcontinent (a comparative study)

Dr. Abdul Majeed Baghdadi
Associate Professor/Chairman, Department of Arabic
Allama Iqbal Open University, Islamabad
abdul.majeed@aiou.edu.pk

Dr. Shabana Nazar
Assistant Professor, Department of Arabic
The Islamia University of Bahawalpur
shabana.nazar@ymail.com

Abstract

The art of the letter writing is a traditional literary prose heritage in the field of literature as well as other sundry arts, like the rhetoric and shrines and debates. The letter in a text written in prose, sends from its owner to a person who is called the addressee.The upcoming article shall enlighten some of the patterns of literary art message in Andalus and Indian Subcontinent and it will also provide an exposure to the technical features of the study and analysis of this art among Andalusian and Indian Sub continental Arabic literature.

Keywords: Letter Writing**,** Traditional Literary**,** Prose**,** Literature, Rhetoric, Andalus and Indian Subcontinent**.**

المدخل:

لعل أبسط تعريف بالرسالة الأدبية هوكمايأتي:

الرسالة الأدبية نص نثري سهل ، يوجه إلى إنسان مخصوص و قد يمكن أن يكون الخطاب فيها عاما ، فهي صياغة وجدانية حانية مؤنسه ، أووفي عتاب رقيق يظهر النجوى أو الشكوى ، ويبوح بما في الوجدان من أحاسيس و أشجان ، وتتوارد الخواطر فيه بلاترتيب ولا انتظام، لتغدو الرسالة ، إن قصرت أو طالت ، قطعه فنية مؤثرة دافعه إلى استجابة المشاعرلها ،و قبولها ما باحت به[1].

الرسالة الأدبية لها ثلاثة أنواع وهي كمايلى:

١ . النوع الأول: الديوانية وأيضا تسمى سلطانيةَ أو إنشائيةَ:

وهي رسائل تصدر عن دارالحكم وتوجه إلى مسئولي الدولة من وزراء وعاملين عليها

٢. النوع الثاني: الرسائل الإخوانية أو الإخوانيات:

وقد يمكن اعتبارها بمثابة "رسائل خاصة" وهي لا تختلف عن الرسائل الديوانية في طبيعتها وأسلوبها فهي هي تماما.

٣. وأما النوع الثالث فهي الرسائل الأدبية الخالصة :

وهي رسائل غير موجهة إلى أحد بعينه ، ولعلها أشبه شيئ بالمقالات الحديثة في يومنا هذا.

فن الرسالة في الأندلس:

[1] ابن قتيبة،أدب الكاتب ،تحقيق محمد الدالي (مؤسسةالرسالة،بيروت 1982/1402م).

Ibn e Qutaiba, Adabu ul Katib, Research: Muhammad Al Daali, (Muassisa Al Risala, Bairot 1402/1982)

فقد كان في عهده الأول من الفتح العربي للأندلُس أغراض محددة أملتها ظروف العصر ، جلي المعاني ، موجزالأسلوب ، خاليه من الزخرفة والتنميق ، ولما اتّسعت آفاق العلم والرقّي ، وانتشرت الحضارة العربية في جميع وجوه المعيشة كثرت أغراض الكتابة و تنّوعت أساليبها من بين الرسائل الديوانية أو الإخوانية أوالسلطانية ، وأما اساليب الكتابة " الدّيوانية "فموضوعها مكاتبة الأمراء والعمال ، وما يتخلّل ذلك من إعلام بالحال أو تقليد وظيفة أو صرف من الخدمة وما إلى ذلك ....

وأما الكتابة "الأدبية أو الإخوانية " فقد انصرف إليها عدد كبير من الأدباء ، وهذا النوع من الرسالة يشتمل الإخوانيات والمناظرات والمقامات والتوقيعات وما إلى ذلك.

سار الترسل الأندلسي على الطريق التي سار فيها الترسُّل في الشرق الإسلامي فكانت خطوته الأولى أشبه بخطوة الترسل في صدرالاسلام وفي العهد الأموي ، واتّسمت بسمة الايجاز والطبع . وما إن كان عهد الموحدين وبنى الأحمر حتى راح المسترسلون يترسّمون خطى البلغاء في عهد بني العباس ،وينحرفون بالرسالة عن كونها قناة للفكرة والعاطفة إلى جعلها مركبالإظهار المهارة في ضروب الصناعة والزخرفة والتنميق من غيرما إهمال للفكرة .ثم راح الترسل ينحط شيئا فشيئاحتى أصبح في آخر الأمر لايهدف إلا إلى الصناعة وقد أصبحت غاية بعد أن كانت وسيلة من وسائل تقوية الفكرة.

وأصحاب الترسل في الأندلس كثيرون وقد أورد ابن بسام في ذخيرته رسائل لعدد كبيرمنهم وعرض لكتاب كل مدينة عرضا مفصلاً ، وهم في أكثرهم سجاعون ، وأصحاب زخرفة وتنميق ، ومن أبرعهم في ذلك ابن برد الأصغر ، وقد روى له صاحب الذخيرة مجموعة كبيرة من الرسائل كما روى له مناظرة بين السيف والقلم.

أماالكتاب الذين اكتسبوا شهرة وصيتا خلال هذه الفترة الأدبية فهم كثيرون بين الكبار والصغار . ولكن نظرا إلى المكان والوقت ، فقد اخترن منهم الاثنين وهما أعلام الأدب العربي شعرا ونثرا في الأندلس الإسلامية و قد اعترف الناس بفضلهما ومكانتهما . و بما قاما من

النهوض بالكتابة العربية على أوسع نطاق وهما لسان الدين ابن الخطيب و أبو الوليد الشَّقُنْدي.

ا. نشأته :

فأما لسان الدّين بن الخطيب(٧٣١ــ ٧٧٦ هـ/ ١٣١٣ ــ ١٣٧٤م) فهو محمد بن عبدالله بن سعيد الغَرناطي .ولد في لوشة وقيل في غرناطة ونشأ في بيت علم وفقه وأدب وطب ، أخذ ينهل من ينابيع المعرفة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً حتى كان من أوسع أبناء زمانه علما ، ومن أشهرهم صيتا .وقد استوزره أبو الحجاج يوسف سلطان غرناطة وابنه السلطان محمد . فتألبت عليه جموع الحساد وراحت تسعى في الحط من شأنه ، وترميه بالكفر والزندقة إلى أن اعتُقل في فاس وخُنق في سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م.

ب. أدبه :

وأما أدبه فإن لسان الدين لم يقتصر على الرسائل الديوانية والشخصية ، بل كتب في التاريخ والتصوُّف والموسيقى والفقه والطب ، ومن كتبه ((الإحاطة في أخبارغرناطة)) ، و ((الحلل المرموقة)) في تاريخ خلفاء الشرق والأندلس وأفريقية ، ((نفاضة الجراب)) في وصف مدن الأندلس وعلمائها. وله رسائل كثيرة جمع قسما منها في كتابه ((ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب)). و اننا نجتزئ هنا بالكلام على رسائله ، وفيها الدلالة الواضحة على ما وصل إليه النثر في القرن الثامن الهجري.

نماذج من رسائله:

١. رسالة في الشوق:

أما الشوق فحدث عن البحر ولاحرج ، وأما الصبر فسل به أيةَ درج ، بعد أن تجاوز اللّوى والمنعرج ، لكن الشدّة تعشق الفرج ، والمؤمن ينشق من روح الله الأرَج ، وأنى بالصبر على إبر الدّهر ومطاولة اليوم والشهر ، حتى حكم القهر. وهل للعين أن تسلَو سلُوَّ المقصر عن إنسانها المبصر ، أو تذهل ذهولَ الزاهدعن سر ها الرائي والمشاهد .وفي الجسد مضغةٌ يصلح إذا صلُحت فكيف حالُه إن رحلَت عنه ونَزحت . وإذا كان الفَراق هو الحمامَ الأول.

فعلام المعول . أعيت مراوضة الفراق على الراق ، وكادت لوعة الاشتياق ، أن تفضي إلى السّياق:

تركتموني بعد تشيعكم أوسع أمر الصَّبْر عصيانا
أَقرع سني ندما تارةً وأستميح الدّمع أحيانا[2]

رسالة إلى خليفة الموحدين بالأندلس.

الخلافة التي ارتفع عن عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف ، واستقلّت مباني فخرها الشائع وعزها الذائع ، على ما أسسه الأسلاف ، ووجبَ لحقّها الجازم ، وفرضها اللازم ، الاعتراف ، ووسعت الآملين لها الجوانب الرحيبة والأكناف،فأمتزاجنا بعلائها المنيف ، وولائها الشريف ، كماَ امتزج الماء والسُّلاف ، وثناؤنا على مجدهاالكريم ، وفضلها العميم ، كما تأرجت الرياض الأقواف ، لما زارها الغمامُ الوكّافُ ، ودُعاؤُنا بطول بقائها ، واتصال علائها ، يسموبه إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشراف ، وحرصناعلى توفيه حقوقهاَ العظيمة ، وفواضلها العميمة ، لاتحصره الحدود ، ولاتدركه الأوصاف ، و إن عذَر في التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير ، الحق والإنصاف ...

ثم ينتقل بعد كلام طويل ، إلى وصف حصار سيده لقَرطُبة فيقول:

ثم تأهبنا لغزو أم القرى الكافرة ، وخزائن المزاين الوافرة ، وربَّه الشهرة السافرة ، والأنباء المسافرة ، قُرطُبة ، وما أدراك ماَ هيَة ، ذاتُ الأرجاء الحالية الكاسيَة ، والأطواد الرَّاسخة الراسية ، والمباني المباهية ، والزهراء الزاهية ، والمحاسن غَيرالمتناهَية ، حَيث حالة بدرالسماء ، قد استدارت من السدر المشيد البناء ، ونهرالمجرة من نهرها الفياض ، المسلول حسامه من عُمود الغياض، قد لصق بها جارا ، وفلك الدولاب ، المعتدل الانقلاب ، قد استقام مدارا ، ورجعَ الحنين اشتياقاً إلى الحبيب الأول وادّكارا، حيث الطّودُ كالتاج ، يزدان بلجين العذب

[2] نفح الطيب: المقري التلسماني، ١/٣٠٠ وما بعدها.
Nafhu ut Teeb, Al Muqri Al Tilmisani, Vol: 1, P: 300

المجاج ، فيُزري بتاج كسرى ودارا حيث قسيُّ الجسور المديرة ، كأنّها عُوجُ المطيِ الغزيرة ،تعبر النهر قطارا ، حيث آثار العامري المجاهد ، تعبق بين تلك المعاهد ، شذى معطارا ، حيث كرائم السحائب ، تزور عرائس الرياض الحبائب، فتحمل لها من الدرنثارا ، حيث شمول الشمال تدار على الأدواح ، بالغدو والرواح ، فترى الغصون سكارى وما هي بسكارى ، حيث أيدي الافتتاح تفتض من شقائق البطاح ، أبكارا حيث ثغور الأقاح الباسم ، تقبلها بالسحر زوار النواسم فتخفق قلوب النجوم الغيارى ، حيث المصلى العتيق قدرحب مجالاً وطال منارا ، وأزرى ببلاط الوليد احتقارا ..[3]"

فن الرسالة في شبه القارةالهندية :

فن الإنشاء من الفنون التي لازمت المدارس لتدريب الطلاب على الكتابة بالعربية ، وفي بيئة غير عربية كانت ممارسة الكتابة أمرا غير سهل ، لكن الملفت للنظر أن الرسائل الإخوانية في هذه البيئة وجدت بكثرة عن غيرها ، وقد سهل وجودها مراسلات العلماء مع بعضهم_أحياناً_ في الداخل باللغة العربية ، ومع رفاقهم وزملائهم العرب في الخارج في كل حين بهذه اللغة ، ومنهم من جمع رسائله في كتاب ومنهم من ألف كتابا في كيفية المراسلة باللغة العربية.

فالشيخ باقر بن مرتضى المدراسى جمع رسائله في كتاب سماه" شمائم الشمائل في نظام الرسائل" ، وحسن على بن حاجى شاه اللكنوى كتب رسائل عارض بها الحريرى وبديع الزمان ، كما جمع الشيخ رشيد الدين الدهلوى رسائله في كتاب ، وكذالك فعل علي عباس الشرياكوتى ، والمفتى محمد عباس الذي مربك ذكره ونموذج من رسائله جمع هذه الرسائل في كتاب سماه " ظل ممدو" ، و للسيد ناصر حسين اللكنوى "كتاب الأثمار الشهية في الانشاء" وللشيخ بناه عطابن كريم عطاالسلونى "كتاب النجم الثاقب لمن يكاتب" ، كما ألف محمد

[3] المصدر السابق

Same as above

زمان خان "سفينة البلاغة" ، و كتب السيد ناصر حسين الجونبورى " علم الأدب في محاورات العرب"[4].

ولعل أقدم نموذج من الرسائل هو ما كتبه أبو العلاء الاورى (ت ٤٩١ هـ) وقد تلاحقبة أدبية اشتهرت فيها طريقة بديع الزمان الهمدانى(ت ٣٩٨ هـ) و أبي بكر الخوارزمى(ت ٣٨٣ هـ) وهما من فطاحل النثر في العصر الغزنوى ،و الغورى.

يقول أبو العلاء عطاءبن يعقوب اللاهورى يشكو جورالزمان وغدر بعض الخلان ووشايتهم لدى السلطان إبراهيم الغزنوي فحسبه في السجن ثمانية أعوام في مدينة لاهور ثم حمل منها مقيدا إلى مدينة ملتان.

"منذ توردت هذه الناحية لم يرد علي سحابة أروي بها كبدي الصادية ، وأجلو حالي الصادئة واستظهر بها على دهر يقصدني حيثماقصدت ، ويضربنى أينما ضربت ولم أخلص بعد من ألسنة أبنائه في ذلك الحى حتى ابتليت بأسنة بناته في هذا الفى وطلعت علىناعارضة داجية الجو باكية النوء و أمطرتنامطر السوء بوفاة الظعنية المسكينة .فتضاعف سقم برح بي فلا يبرح وترادف ألم ألح فلا لحلح ، وما حال أفق أفل نهاره. وروض ذبلت أزهاره ، وقلب زال قراره ، وخلب زاد أواره ، وكثير فارق عزته ثم فقد عزته ، والمصيبة في الغربة أقطع ، ولك القرح بالقرح أوجع!

وأكثر ما جرعلى هذه الفادحة تطيرى بفلان ، فإنه بكر على يوم النوروز متأبطًا طومارا أطول يوم الحشر ، قد أربى ذراعا على العشر ، يضيق عنه نطاق النشر ، ملأه نظما و نثرا مرثية جاريه لقد ماتت منذ خمسين سنة ! ذكر فيه غرتها ونعرتها وطرتها ودرتها وعمرتها و خمرتها ، وسرتها وصرتها فتشفعت إليه وتضرعت بين يديه وقلت له: أنشدك الله ألا طويته وأدرجته ، وأدخلته من حيث أخرجته! فأبى إلا جماحا في المسحل ، وسل مقولًا كالمعول ، وجعل يكيل من تلك الأهواس إذا قراء سطرا أعاد إلى الرأس ،وحكى أساطير الأولين ، ورفع

---

[4] الثقافة الإسلامية في الهند: عبدالحي الحسني .ص٤٤ – ٤٥

Al Saqafat ul Islamia fi Al Hind, Abdul Hai Al Hasani, P: 44-45

العويل والانين ، وأرسل المخاط والذتيه ، كلما قال لفظة سمل وأخرج من قعر حلقة جعل. وأنا أنزوى كما تنزوى الجلده في النار ، و ألتوى كما تلتوى الحية على الأوار ، لايمكننى أن أقر ، ولا تركنى حتى أفر ، إلى نصف النهار ، ولم ينصف بعد الطومار ، وقمنا إلى المفروض ، بعد النهوض ، ولما انفصلت من ذلك المكان وصل كتاب التحول إلى (المولتان) وحمت المسكينة في الحال ووقعنافي الأوجال والله نصيري على الزمان والإخوان وحسيبي ، وقد قل منه ومنهم حظى ونصيبي"[5].

وفي رسالة طريفة بعث بها إلى صديق له كان من الوزراء ، استخدم فيها اصطلاحات النحو استخداما ظريفا ، يقول:

" أطال الله بقاء الشيخ في عزمرفوع كاسم كان وأخواتها ، إلى فلك الأفلاك منصوب كاسم إن وذواتها ، إلى سمك السماك موصوف بصفة النماء ، موصول بصلة البقاء ، مقصور على قضية المراد ، ممدود إلى يوم التناد ، معروف به ، مضاف إليه ، مفعول له ، موقوف عليه ، صحيح سالم من حروف العلة ، غير معتل ولامهموز همزة الذلة يثنى ويجمع دائما جمع السلامة والكثرة ، لاجمع التكسير والقلة ساكن لاتغيره يد الحركة ، مبنى على اليمن والبركة ، مضاعف مكرر على تناوب الأحوال ، زائد غير ناقص على تعاقب الأحوال ، مبتدأ به خبر الزيادة فاعل مفعوله الكرامة مستقبله خير من ماضيه حالاً ، وغده أكثرمن يومه وأمسه جلالا ، له الاسم المتمكن من إعراب الأمانى والفعل المضارع للسيف اليمانى لازم لربعه لايتعدى ولاينصرف عنه إلى العدى ،ولا يدخله الكسر والتنوين أبدا ، يقرأباب التعجب من يراه منصوباً على الحال إلى أعلى ذراه ، متحركا بالدولة والتمكين منصرفا إلى ربوة ذات قرارومعين .

وهذا دعاء دعوت له على لسان النحو ، وأنا داع له بكل لسان على هذا النحو ، ولولا الاحتراز العظيم من أن يمل الأستاذ الكريم لسردت أفراده سردا ، وجعلت أوراده وردا ،

---

[5] أبو العلاء اللاهورى .ص٥٥ – ٧٥.

Abu l Ala Al Lahori, P: 55-57

وجمعت أعداده عقدًا ، ونظمت أبداده عقدا ، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لايهدى كيد الخائنين"[6].

هذا النثر الرقيق الصافى مهماساده من سجع العبارة مالبث أن تعقد بمرور الزمن حتى إذا وصل هذا النثر إلى القرن السابع والثامن الهجرى ، وجد أشبه بقطعة زخرف تكلف أصحابها بتزويق ألفاظها ، وتنميق عبارتها ، ووشوها بالشعر ، وطرزوها بالجناس والتوريات . فاختفى المعنى وراء ديباجهم ، حتى شغلت هذه الصنائع البراقة ذهن القارئ عما أراد الكاتب ، وركزت نظره على ما يتوقع أن يأتى به قلم الكاتب من علاقات لفظية بين العبارة التي يقرأها والتي تليها .

وقد استمرت هذه الطريقة في أدب الرسائل حتى القرن الرابع عشر الهجرى (العشرين الميلادى) عند ألطاف حسين حالى وعبد العزيز الميمنى الأثري.

إعجاز خسروي : مقام لكنهؤ : ١٨٧٦هـ .

درمطبع منشي يوكشور طبع تان رونق كزين نوي شد[7].

الرسالة الثانية في المرتّبات من المكتوبات تشتمل على عشرة خطوط ،

" شريف مولانا سعيد الملة والدين منهل الرعايا مشرع البرايا منبعً الشرائع بحرالبدائع مع سائراوصافه الفايضة "

"لطيف سعيد عين الدولة مطبوع الملك محي الارواح والأجساد و روح القلوب والاكبار مع سائر اوصافه البهيته"

"وصب عن عينيه واماء الدماء سكب منه عرق المحن مطرمن عينه ومع بلاعين للميت هوى من هواء الهادية انزله المالك في وادى جهنم هم منه صديد العذاب ادعيته العين بمعنى النيبوع ملك " وسبهدار" عين الدين وسع الله مجارى يسره وفاض وايما على السائلين كفاه

---

[6] أبو العلاء اللاهورى ، ص٥٨ - ٥٩.

Abu l Ala Al Lahori, P: 58-59

[7] إعجاز- أمير خسرو، الرسالة الثانية، ص١١٦.

Aijaz, Ameer Khusro, Al Risala Al Saniya, P: 116

الله الأمساك عن كفه مولانا فايض الشريعة زاد الله فيضه وضاعف الله تفجير مشارعه فجر العليم عين غلمه شيخ الاسلام ادامه ؟ الرب في تربيته الفقراء شيخ زاده اتولى صفأه خواجه ومحرر جرىٰ قلمه العين كالفضة على العين شاعر صفى الله قريحته ولطف الله عذب رويته وضوعف لطافته طبعه للميت شيخ الاسلام عين الدين نضرا وراد الخلد بوروده وزين به الرضوان رياضه وذكره الله بين السعداء مولانا روى الملائكة من قيضه ويستفيض الأرواح بافاضة واحياء الله مشارع الدين باسمه للعموم طهره الله عن لوث الزلل وبرده الله حرا لقيامة أسأل الله في سبيل الرحمة حفظه الكريم عن نشف التراب اجراه الله إلى انهار الخلد العكس يبس عينه وسد تبع حيواته وذهب مأه كدر صفاء ،حاله صبَّ مأه في المزابل للميت بعد من البار والكريم ملى بطنه بالحميم سال منه صديد العذاب ناء من باقيات الخلد كف الله عَنه زبد غفران"[8].

وهو يكتب في الرسالة الأخرىٰ :

"الّا دعيه للحي والميت بالمدح والذم على الاجمال من ثبت جوده ثبت وجوده من اعطى ثمرا اعطى ثمرا من قسط ما سقط من عدل ما عدل من نما مكره بار ثمره من زاد خيره باد خيره من مات برا عاش في عين العفو من ارتحل كريما يرتع في رياض الرضوان الكريم من اسقط عوانا بعث في عظام الكلاب من مات لادغا خلق مثل الادعيته مار العقارب تكون مثواه الدود"[9].

الكتاب "إعجاز خسروى" مشتمل على خمسة مجلدات و اللغة العربية موجود في العبارات الابتدائية في كل جلد مثلاً :

(١) هذا الكتاب بفضل الله ذى الكرم انشاتُ سحْرًا لصَيد الجنّ والنَّسيمْ ...

(٢) الرسالةُ الثانية في المرتَّبَاتَ من المكتوبات تشتمل علَى عشَره خَطوَط ...

[8] نفس المصدر

Same as above

[9] المصدر السابق: ص ١١٧- ١١٨.

Same as above, P: 117-118

(٣) الرسالة الثالثة من رسائل الإعجاز في اللطائف من المصنوعات تشتمل على خطين خط اول ....

(٤) الرسالة الرَّبعة في البدَايع من المعنويات تشتمل علَى خمسة خطوط ...

(٥) الرسالة الخامسة في السوابق من المنشاة تشتمل علَى ستة خطوط .....

يكتب هذه العبارَة علَى صفحَة عشر

"ع بين نامئ تخبيس مكرر عربي + عنوان رقعة[10].

يلخط بلخط مُكْرِم مكَرّم تحميد الواحد الواجد القاب صيّت حبيب انْس انَس نَفْسي نَفسي يقيس نفيس صدر صدر قدره قدرة علَى علىٰ سمآء سماء يقبل تقبَّل بابه بأنَّه كرم كرم وجوده وجوده ثُمَّ نَمَّ عرض عرض اعلم اعلم علماء علما عزيزا عزيز ايغم يغيم ربَّنا زيِّنا حالَّنا خاليا عن عنَّ محنته محبَّة وجيد وحيد تَحلىَّ بحلي جلاله خلاله يعبر بعيد حيَّا حيا عبادا عبَّادا تقوي يقوىٰ نفسه نفسه بصدق يصدق زاد زاد اجرة آخرة جالَ حالَ آخر اجر تقولُ تقول عبدك عندك تيم نيم بينا بيتا. نظم كريمى كرنمي خذه حدُّه و جده وحده و قرا وفرَّا ، هذا هذا ثُمَّ نَمَّ زور زوَّر بيني بيتي بناء ثناء لَدَّى لذى علُّو علو تعدَّىٰ بعدى علَى علَّى فقير فقير يزرق بزرق يرزق برزق ام ام فتن فنن غصنه غصبه نيته نيَّة كثير كبير قتل قبل اجل اجَل دمه ذمَّة قاتل قابل غره عزه بيت تراه براة عنَّا عنا لعيب لعيب بناء بنا، اسمع اسمع تعيبه بعينه هذا به هذابه عدانا عدانا جود جود من منَّ حبُّه حبَّه لسيف تسيف عليه غلبة ثُمَّ نَمَّ امنا آمنا فضل فضل بين بين اغرتك اغربَك حيٌّ حيَّ احيانا احيانا ثبت بيت عمرك عمَّرك ..[11]

دراسة مقارنة في فن الرسالة:

---

[10] المصدر السابق: ص ١٩٠

Same as above, P: 190.

[11] المصدر السابق الرسالة الثالثة : ص ١٠- ١١.

Same as above, Al Risala Al Salisa, P: 10, 11

بعد التفحص العميق في الآثار الأدبية في الأندلس وشبه القارة الهندية نجد هناك ثلاثة أنواع في فن الترسل وهي:

١. الديوانية وتسمى السلطانية أو الإنشائية

٢.الرسائل الإخوانية أو الإخوانيات

٣. الرسائل الأدبية الخالصة .

الكتاب من كلاالبلدين كانوا يستخدمون الكتابة في كل نوع في أوقات مختلفة في الأندلس وصلوا بعض الكتاب

في قمة الشهرة في هذا المجال مثلاً ابن برد[12]، ابن زيدون[13]، ابن شهيد[14]، ابن دراج[15]، لسان الدين[16]، وإسماعيل بن محمد الشقندي[17] ،وغيره .

---

[12] الأعلام :الزركلي ،213214/1-. أحمد بن محمد بن أحمد بن برد ، أبوحفص (ت ٤٤٠هـ) شاعر أندلسي ، من بلغاء الكتاب . من بيت فضل رياسة . له رسالة في "السيف والقلم والمفاخرة بينهما". المصدر السابق: ١٥٨/1.

Al Aalam: Al Zirakli, Vol: 1 P: 213,214,

Ahmad bin Muhammad bin Ahmad bin bard, Abu Hafs (Died: 440 Hijri) he was a Poet of Andalus and was eloquent writer, From house of honor. He had an Article in "Al Saif wa Al Qalam wa Al Mufakhra bainahoma". Same as above: Vol: 1 P: 158.

[13] أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب ابن زيدون(٣٩٤ – ٤٦٣هـ) ، المخزومى الأندلسي ، أبوالوليد : وزير كاتب شاعر، من أهل قرطبة ، انقطع إلى ابن جهور(من ملوك الطوائف بالأندلس) فكان السفير بينه وبين الأندلس.

Ahmad bin Abdullah bin Ahmad bin Ghalib bin Zaidoon(394 to 463 hijri), Al Makhzomi Al Andlusi, Abu Al Waleed: Minister Secretary Poet, from the people of Qurtaba, he wint to Ibn e Jahwar (from the kings of sects) was an ambassador between him and Andlus.

[14] أحمد بن عبدالملك بن أحمد بن شهيد (٣٨٢ – ٤٢٦هـ) ، من بني الوضاح، من اشجع ، من قيسن عيلان ، أبوعامر الأشجعي: وزير ، من كبار الأندلسيين أدبا وعلما. المصدر السابق: 163/1.

Ahmad bin Abdul Malik bin Ahmad bin Shaheed (382 to 426), belonged to the bani Al Wazzah, and those belonged to Ashja, from Qais Gailan, Abu Aamir Al Ashjayee: Minister, he was one of the great writers of Andlus. Same as above: Vol: 1 P: 361.

[15] أحمد بن محمد بن العاصي بن دراج القسطلي الأندلسي ، أبوعمر(٣٤٧ – ٤٢١هـ) شاعر كاتب من أهل "قَسطَلَة درَّاج" المسماة قرية"Cocdla" اليوم قرية في الأندلس . كان شاعر المنصور أبي عامر وكاتب الإنشاء في أيامه. المصدر السابق: 211/1.

Ahmad bin Muhammad bin Al Aasi bin Durraj Al Qastali Al Andlusi, Abu Umer (347 to 421 hijri), was a poet and writer, belonged to people of "Qastala Darraj" his name today "Cocdla" one of the villages of Andlus. Was poet of Mansoor Abu Aamir, and was a prose writer in his days. Same as above: Vol: 1 P: 211.

وفي نفس الوقت بعض الكتاب من شبه القارة حصلوا شهرة واسعة في فن الرسالة مثلاً أبو العلاء اللاهورى[18]، بديع الزمان الهمدانى[19]، أبوبكر الخوارزمى[20]، المفتى السيد محمد عباس التسترى[21]، ألطاف حسين حالى[22]، عبدالعزيز الميمنى الأثرى[23].

أما في الأندلس فإن رسائل لسان الدين ابن خطيب وإسماعيل بن محمد الشقندي تحتل مقام الإعجاب والتقدير، وإن كانت تسير تماما على نهج رسائل الأعلام من الكتاب

---

[16] المصدر السابق. 235/6 محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني اللوشى الأصل. الغرناطي الأندلسي(٧١٣ - ٧٧٦هـ) ، أبو عبدالله الشهير بلسان الدين ابن الخطيب: وزير مؤرخ أديب نبيل.

Same as above, Vol: 6 P: 235.

Muhammad bin Abdullah bin Saeed Al Salmani Al Laushi Al Asal, Al Gharnati Al Andlusi (713 to 776), Abu Abdullah, famous with name of "Lisanu ud Deen bin Al Khatib", Minister historian writer of Neel.

[17] المصدر السابق: 323/1. إسماعيل بن محمد ، أبو الوليد الشَّقُنْدي(ت ٦٢٩هـ): أديب أندلسي ، له شعر من أهل شقنده و وفاته بإشبيلية.

Same as above. Vol: 1 P: 323.

Ismail bin Muhammad, Abu Al Waleed Al Shaqundi (Died: 629): A writer of Andlus, and died in Ishbeelia.

[18] تتمة الأعلام ج (الطبعة الثانية) بيروت: دار ابن حزم ص304.

Tatimmat ul Aalam, (third edition) Bairot, Ibn e Hazm house, P: 304

[19] المنجد في الأعلام ص730.

Al Munjad fi l Aalam, P: 730.

[20] المنجد في الأعلام ص274.

Al Munjad fi l Aalam, P: 274.

[21] المنجد في الأعلام ص187.

Al Munjad fi l Aalam, P: 187.

[22] المنجد في الأعلام ص228.

Al Munjad fi l Aalam, P: 228.

[23] أبو العلاء اللاهوري: حياته، نثره، شعره (ظهورأحمد اظهر، الرياض:دار الرفاعي 1982.

Abu Al Ala Al Lahori, his life, his prose and his poetry (Zuhor Ahmad Azhar, Al Riaz: Daar ul Rifayee 1982).

المشرقيين سواءمنها الرسائل الديوانية أم الرسائل الإخوانية . ولا تصيب الرسالة الديوانية الأندلسية أي تطورأو تغير ، بل تظل مُصرَّة عَلَى السّيْر في ركاب قرينتها المشرقية واقتفاء أثرها ، لا يبدَّلَ الزمن من شكلها ، ولا الأحَدَاث من صَوغها وأسلوبها ، وإنما تظل أمينة على متابعة نظائرها في المشرق تتعقد تلك منهجا وأسلوبا فتسرع هذه إلى ملا حقتها َ، وتوعَّل تلك تصنيعا وسجعا وجناسا فتزداد هذه حماسا إلى التصنيع والسجع والجناس ، وتتوقف الرسالة الديوانية الأندلسية كشأن أختها المشرقية عند مدرسة القاضي الفاضل وأسلوبه لاتحيد عنها ولا تزيد عليها . على سبيل المثال رسالة ابن الخطيبب بعث بها على لسان الغني بالله صاحب الأندلس إلى السلطان المنصور بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون عمد فيها إلى شرح حال بلاد الأندلس وما يعتورها من أخطار في الفترة التي كانت أعمدة الدولة الإسلامية تنهار فيهَا عمودا بعد عمود وتسقَط حصونها حصنا بعد حصن ، وما في الرسالة من إسراف في السجع وإيغال في الصنعة وتقليد لأسلوب المشارقة حتى في ترديد ماكانوا يخلعون على ملوكهم من ألقاب عديدة كثيرة كانت تزيد في بعض الأحيان على ثلاثين لقبا يصرُّ السلطان المملوكي على أن يلقب بها كلها دون زيادة أو نقصان.

ولعلنا نلاحظ في الرسالة مظاهر ليس إلى تجاهُلها من سبيل ، ذلك أن لسانَ الدين يعتمدُ إلى أسلوب الإطناب والترادفَ إلى حد الملَل ، وهو نفس الأسلوب الذي كان يتبعه كتابَ سلاطين المماليك في مصر حين آل إليها مركز الثقل في العالم الإسلامى في العصور الوسطى.أما الألقاب التي خلعها الكاتب على السلطان المملوكى فقد أوشكت أن تصل إلى مائة لقب وصفة ، وهي أكثر بكثير مما كان يرضي السلطان نفسه ، ولكن ربما كان للكاتب هدف في ذلك طالَما كان ساعيا إلى الاستنجادَ والاستعانة بجيشه.

وأما التحميدات والدعاءات التي جرت العادة منذ ابتدعها عبدالحميدعلى التأنق فيها ، فإن الكاتب قد أتى منها بأربع وعشرين سجعة على رويٍ واحد ، وهو أمر إن أجازه الشعر فإن النثر لايستسيغه ، فان النثرمن الانتثار والنظم من الا نتظام ، وتنويع القافية في النثر يريح السمع ويهدىء الخاطر ، فإذا ما نوع الكاتب في سجعه وبدّل في جرسه كان ميسرا على

قارئه غيرَ مثقل على سمعه ولامُكدّ لخاطره ، وأما إذا كان شحيحاً بالتغيير مقلاً في التبديل فإنه حينئذ يسير على عسف وينهَجً في حزن ، مثال ذلك قوله : ((فليس إلا الصبر ، والضرب والهبر ،والهمز والنبر ، والمقابلة والجبر ، وقد خال البحر بينهم وبين إخوان ملتهم ، وأساة علّتهم يقومون بهذا الغرض ، عن أهل الأرض ، ويقرضون ملك يوم العرض أحسن القرض)) وهكذا أسجاع متعسفة بعيدة عن الطبع غير متجانسة طولا أو نسقا ، وهي مز يج من سجع بديع الزمان عابرة القرون إلى سجع القاضي الفاضل الذي نكاد نتمثله تمثلاً كاملاً في قول لسان الدين: ((ثم استرسل المهب ، ونصرالرب ، ويكثر الطير حين ينتثر الحب ، وصرفت أشراف الشام أَعنَّتها نعام إلى التماس خيره ، وطارت بأجنحة العزائم تيمُّناً بطيره ، وقصدته الطلائع صحبة بَلج بن بشر وغيره ، ففتحت الأقفال ، ونفلت الأنفال ، ونجح الفال ،ووسمت الأغفال ، وافتتحت البلاد الشهيرة ، وانتقيت العذارى الخيرة ، واقتنيت الذخيرة ، وتجاوز الإسلام الدروب وتخطّى ، وخضد الأرطى ، وأركب وأمطى ، واستوثق و استوطا وتثاءب وتمطى)) وهكذا يكَادُ القول يصدم أسماع القارئ و يؤذى أذنيه نتيجةً لهذه الأسجاع التي التزمها القوم فأفسدت معاني الكلام وذهبت ببهاء فحواه.

هنا يمكن القول إن كتاب الأندلس كانوا في رسائلهم صورة دقيقة لأساتذتهم في المشرق ، وأيضا كانوامفتونين ببلدهم فخورين بوطنهم يحسون مواطن الجمال فيه وألوان الحضارة المنتشرة في نواحيه ، الأمرالذي جعلهم يسجلون مشاعرالحب هذه شعرا رقيقا منسابا أخاذاً جرى على ألسنة كل مَنْ وافتُه القريحة بقول الشعر أو اصطناعه. وقد بدأ لبعض صَفْوة علمائهم وكتابهم أن يسجلوا مفاخر وطنهم نثراكما سجله الشعراء شعرا ، فتلمسوا لذلكَ الأسباب واقتنصو المناسبات التي اتخذوا منها ذريعة للإشادة بوطنهم سحرا وموقعا وجمالا ، وبمواطنهم علما وشعرا وأدبا وفعالاً.

إن الشقندي أديب بليغ لذلك فإن رسالته فضلاً عن طولها أغنى و أمتع وآدب وأوفر ثروة بالروح الأدبية من رسالة ابن حزم ، وهو يعدد عظماء الأندلس من ملوك وحكام وأدباء ويركز على الشعراء وبخاصة الموهوبين منهم ويجعل من أعمالهم أسبابا وجيهة للفخر و وجوها

وضاحةً للتمجيد ويستشهد بالعذب من أشعارهم في كل مجال ويسوق أبكار معانيهم التي ربما لم يفضضها قبلهم أدباء المشرق ، وهو في ذلك كله يصدر عن روح أدبية أصيلة وينطلق عن سياق عذب التسلسل دقائق المعاني ، ويواكب ذلك بتعليقات لطيفة لا تخلو من روح نقدية أصيلة مع روح من التحدي مريرة لو استطاع أن يتخلص منها لما نال من رونق رسالته ولاغص من قيمة مقارعته.

"لقد أتعب الشقندي نفسه وكَدَّ قريحته وأجهد حافظته حتى عرض هذه المنتخبات المنتقاة من شعر الشعراء الأندلسيين ليحرز لهم قصب السبق ويسجل لهم أسباب التفوق، على أننا لو حاولنا أن نجاري الشقندي في أحكامه تلك التي أقامها على تلك الأمثلة التي أتى بها رغم انفردها بالرقة والدقة وحسن الاختيار لَظَلَمنا شعراء المشرق فإن عندهم الكثير وهم أولًا وأخيرا أساتذة الأندلسيين ولكن حماس الكاتب لم يفوت علينا فائدة جليلة ، ذلك أنه وضع بين أيدينا باقة مؤنقة جميلة من الشعر العذب الذي قيل . في عديد من الأغراض مابين مدح و وصف وغزل وخمر ولعب وجد وعبث وزهد يمكن للأديب أن يمتع بها نفسة وأن يجدد بقراءتها بهجة خاطره ، وأن يخرج منها بالكثير من مقطوعات الشعر الأندلسي البهيج.

إن هذا القسم من رسالة الشقندي هو الذي يمكن أن يعد قطعة أدبية بارعة النسيج جديدة الربط مشرقة الأسلوب موصولة القضايا مترابطة الأحكام . يبقى بعد ذلك القسم الثاني من رسالة الكاتب وقد نهج فيها نهج الجغرافيين والرحالة ، فقد وصف فيها تسعا من مدن الأندلس ، بلغة أدق و وصف ثماني مدن وجزيرة . أما المدن فهي اشبيلية وقد بدأ بها وأطال في وصفها وفضلها على غيرها لأنها كانت دار إقامته ثم وصف بعد ذلك قرطبة و جيان وغرناطة ومالقة والمرية ومرسية وبلنسية ، وأما الجزيرة التي وصفها فهي جزيرة ميورقة"[24].

---

[24] نفح الطيب: المقري، ١٧٧/٤ وما بعدها.

Nafh ul Teeb: Al Muqri, Vol: 4 P: 177.

وإذا كانت طبيعة التناول لهذه المدن التي تحدث الشقندي عن فضلها لاتستدعى التأنق في العبارة أو الصناعة في الأسلوب ، فإن الكاتب قد تخلى عن التأنق في العبارة والحرص على السجعة وخفف من الاستشهاد بالأشعار وعمد إلى أسلوب يطاوعه في سرد الحقائق التي ينشدها ولا يستعصي عليه في وصف ما أراد وصفه من حياة اجتماعية وميزات اقتصادية وأنماط سلوك وسبل حياة ، وفضائل تَمَيَّز بها الناس عن غيرهم ، ومزايا توفرت في بلادهم في حين لم تتوفر في بلدان أخرى.

على أن الشقندي لم يكن الوحيد الذي سلك هذا السبيل وهو يكتب في هذا المجال وإنما سبقه إلى ذلك ابن بسام في الذخيرة . و الفتح ابن خاقان في القلائد و المطمح ، و فريق الكتاب الذين ألفوا كتاب المغْرِب ، و من بعده لسان الدين و المقري وغيرهم.

إذن فإنَّ الضرب من الكتابة هذا الذي عمد إليه كل من ابن حزم والشقندي في رسالتيهما وغيرهما من الكتاب كان ينزع إلى منزَّعَيْن ويتحلى بصفتين منزَّع الصناعة وصفة التأنق حين يجد الكاتب أنَّ طبيعة الموضوع الذي يطرَقه تساعده على ذلك ، ومنزَّع البساطة وصفة الاسترسال حين يعْمدُ الكاتب إلى تسجيل قضايا وتحليل مجتمع وذكرمزايا وترديد أخبار ، فكانت الرسالة الواحَدة والأمر كذلك تجمع بين الأسلوبين الأدبي المصنع و العلمي المرسَّل ، وهو نمط تابع لنظيره في المشرق. وليست يتيمة الدهر للثعالبي والخريدة للعماد الأصبهاني وبقية هذه السلسلة إلا الأصل المشرقي اقتفى أثره كتاب التآليف الأندلسية.

الخلاصة:

بعددراستنا هذه وجدنا أن الكُتاب في الأندلس كتبوا رسائل مفصلةَ وأدبيةً للملوك وشخصيات أخرى، ورسائلهم هي مزيج جميل من النثر والشعر. وليس لدينا أي شك في نقول إنهم فَعلُوا جهدا كبيرا في هذا المجال.

ومن جهة أخرى نجد في شبه القارة الهندية أن كتابة الرسائل كانت مادة إجبارية في المدارس ، وفي بيئة غير عربية كانت ممارسة الترسل بالعربية أمرا غير سهل. لكن الملفت للنظر

أن "الرسائل الإخوانية" في هذه البيئة وجدت بكثرة عن غيرها. وقد سهل وجودها مراسلات العلماء مع بعضهم – أحيانا – في داخل بيئتهم وفي رسائلهم الإخوانية باللغة العربية ، ومع رفاقهم وزملائهم العرب في الخارج في كل حين بهذه اللغة ، ومنهم من جمع رسائله في كتاب ومنهم من ألف كتابا في كيفية المراسلة باللغة العربية.

ولعل أقدم نموذج وصلنا من الرسائل هو ما كتبه أبوالعلاء اللاهورى (ت ٤٩١هـ) وقد تلا حقبة أدبية اشتهرت فيها طريقة بديع الزمان الهمدانى(ت٣٩٨هـ) وأبى بكر الخوارزمى (ت ٣٨٣هـ)وهما من فطاحل النثر في العصرالغزنوي . ونرى أن هذا النمط من الكتابة الرسالة اتبعت في قرون أخرى.

وهذا النثر الرقيق الصافي مهما ساده من سجع العبارة مالبث أن تعقد بمرور الزمن حتى إذا وصلنا إلى القرنيين السابع والثامن ، من الهجرة وجدنا هما أشبه بقطعة زخرف تكلف أصحابها بتزويق ألفاظها ، وتنميق عبارتها ، و وشوها بالشعر ، وطروزها بالجناس والتوريات ، فاختفى المعنى وراء ديباجهم ، حتى شغلت هذه الصنائع البراقة ذهن القارئ عما أراد الكاتب ، وركز نظرة على مايتوقع أن يأتى به قلم الكاتب من علاقات لفظية بين العبارة التي يقرأها والتي تليها.

والنماذج في شبه القارة الهندية التي ركزنا عليها هي قبل وبعد القرنين أي السابع والثامن، من الهجرة ، لأن الكتاب اتبع نفس النمط حتى القرن الثالث عشر من الهجرة ، ورسائل محمد عباس التستري يقدم دليلاً في هذا الخصوص . ولكن في القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادى) مولانا ألطاف حسين حالي لا يحافظ هذا الأسلوب في رسائله بل ينتقل إلى نثر عادى سهل ليس فيه من القديم إلا تزيينه بأبيات شعره.

وتعتبر قصة حي بن يقظان في نظر خاصة المفكرين والمثقفين من أكبرالأعمال القصصية الفكرية في العصور الوسطى ، لافي الأدب العربي وحده ، ولكن في نطاق الآداب العالمية جميعا ، وهي إلى القصص الفكري أقرب منها إلى القصص الأدبي ، بمعنى أن هذه القصة تضم مبادئ فكرية ،وتسيرفي نطاق ممهدعلى أرض فلسفية ، لأن المؤلف ينتمي إلى

مدرسة فكرية فلسفية لها مبادئهاوعناصرها وأهدافها ، وهو مرتبط بتلك العناصر والأهداف ، مشدود إليها ، لايحيد عنها ، بعكس الأديب الذي يقوده خياله الخصيب ، ويجنح به ذات اليمين وذات الشمال ، والفكرة لها حدود ملتزمة بعكس الخيال الذي لايلتزم بحدود ولايتقيد بنطاق ، ومن هنا كان جوهر قصة حي بن يقظان أقرب إلى المنهج الفلسفي من حيث الطابع والهدف من قصص أبي العلاء وابن شهيد وبديع الزمان الهمذاني ومن هم على شاكلتهم .

يروى لنا ابن طفيل روايتين لنشأة حي بن يقظان : الأولى: نشأة طبيعية ، فقد كان هناك ملك عظيم منع أخته من الزواج لأنه لم يجد من الرجال من هو كفؤلها ، لذلك تزوجت سرامن رجل يدعى "يقظان " فأنجبت طفلاً أسمته (حي) و وضعته في تابوت ، وقذفته في اليم قائلة: "اللهم إنك خلقت هذا الطفل ولم يكن شيئا مذكورا ، ورزقته في ظلمات الأحشاء وتكلفت به حتى تم واستوى، وأنا قد سلمته إلى لطفك ، ورجوت له فضلك ، خوفاً من هذاالملك الغشوم الجبار العنيد فكن له ، ولاتسلوه، ياأرحم الراحمين!"[25].

[25] حي بن يقظان: ابن طفيل، إعداد، د. سمير سرحان و د. محمد عنائي، ص ٣٥.
Hayee bin Yaqzaan: Ibn e Tufail, prepared by: Dr. Sameer Sarhan and Dr. Muhammad Anayee, P: 35.

الهوامش